الدين والانسانية

تعريب الاستاذ كمال الشماهد

الدين يعلمنا كيف نحتفظ بالكرامة وكيف نحافظ على قيمتها الانسانية انه يحدد القوانين الثقافية والاخلاقية والاجتماعية . ولقد قهر الانسان العالم المادى وطرق أبواب الاسرار الروحية فان لم يتخذ الدين له نبراسا فسيكون جاهلا بذاته نفسها ولن ينجح أبدا فى تحصيل معرفة ، كما لن يشعر بلذة الفوز اذا ما حقق احدى غاياته العلمية . كذلك الانسانية لتتقدم أو تحقق أى غرض من أغراضها لولا الدين . ان الانسان لايستطيع الا أن يشعر بالشكر والامتنان للدين .

ومن المعروف الواضح المصطلح عليه أن الدين انما أنزل اصلاحا للاخلاق وتقويما للفضائل وها نحن أولاء نرى أن العالم قد تقدم الى حد الزعم بأن كل فرد من أى بلد أوجنس اذا فهم فهما تاما أهمية الاخلاق فلا حاجة به اذن الى الدين . وان نحن سرنا وهذا الزعم فالنتيجة الحتمية له أنه لن يكون هناك خطأ كما سيصبح كل شىء حقا وجائزا كما يعنى أيضا أن ثورات العالم الدينية لم يكن لها أثر فعال وانما جاءت ومرت مر الكرام .

ويتبع ذلك ـ اذا بقى هذا الفهم دون أن ندحضه ـ أمر جد خطير هو سيادة الالحاد . وعلينا أن نودع الشعور الدينى ونكفن الاحساسات الدينية ويبدو أن كل ذلك أمرمستحيل لانه سيكون فى نضال ضد القانون السماوى وما من انسان جرؤ على تحدى هذا القانون أو حاول تحطيم قوانين الطبيعة الا وأصابه القدر المحتوم برزء عظيم .

ان هذا النظام الذى تسير عليه المخلوقات ودستورهم الدائم الثابت انما يدلنا على حقيقة واقعة : انه لابد من وجود قوة قادرة تحكم العالم .

ان السفينة سواء أكانت تسير على مياه هادئة وادعة وقد طابت لها الرياح وأسلس النسيم لها قياده أو كانت فى لجج من الامواج تتقاذفها وسـط عواصف هوجاء تزأر من حولها ، هذه السفينة فى كلتا الحالتين لابد لها من قائد ، كما أنه لابد للقاطرة من سائق ان هو تركها لم تتحرك من مكانها قيد أنملة ، فاذا كانت هذه حالة بعض الآلات الصغيرة ، فما بالنا بالآلة الكبرى آلة العالم وكيف لها أن تسير دون اشراف .

ولنضرب مثلا : معهدا اكتمل له طلبته وأساتذته فهل نضمن حسن السير فيه ان لم يكن له رئيس ؟ فوجود الرئيس يضمن النظام ورفع مسـتوى المعهد . وكذلك ادارة العالم تتطلب « أحدا » يقوم بهذا العمل السامى العظيم فهو الله الذى خلق العالم وهو المتصرف المطلق فى الحياة والموت .

ومن هنا نرى بوضوح الأهمية الكبرى للصلة بين الله وبين الانسانية هذه الصلة نسميها « الدين » . والدين هو المعيار الذى نعرف به أعمـال

الانسان ، هل أعماله صالحة ، أم طالحة ، هل هو فاضل أم شرير ، تراه يسير على أى صراط : صراط قد استقام أم صراط قد اعوج ·

والعلاقة بين الدين والانسانية علاقة قديمة ليست بالجديدة قد وجدت منذ وجد الانسان على سطح الارض بل من يوم خلقت الارض ذاتها ·

وكان الدين فعالا فى تحطيم الظلام فهو لم يحفظ الصلة المدنية بين الكائنات البشرية فحسب بل وزاد فيها ·

واذا لم يكن هنالك دين فان الانسانية ولا ريب لم تكن لتوجد،أى ان وجود الانسان مترتب على وجود الدين ، وما كان هناك تمايز أو اختلاف بين كائن انسانى وبين حيوان ، ويتهم قلائل من المغالين فى مدنيتهم الحديثة والمستعربين الذين يقاسون الكثير من جرعات المدنية ويشعرون بضعفهم ، يتهم هؤلاء الدين بأنه عقبة كأداء فى طريق التقدم ويفترضون افتراضا خاطئا أن الدين يقف حجر عثرة فى طريق رقى البلاد والمجتمع · ولو أنهم فهموا الدين فهما صحيحا وأخذوه بمعناه الحقيقى لما نادوا بمثل هذه الآراء الخاطئة ، فهم اما أخطأوا الفهم عن غير قصد ، واما أنهم أغمضوا عيونهم قصدا دون الحقائق ، فاذا كانوا أخطأوا عن غير قصد فسنحاول أن نحررهم من سوء فهمهم ، وان كانوا قاصدين فلا حيلة لنا معهم · ان لكل سؤال جوابا منطقيا، ولكن ليس للجهل أو التعامى عن الحقائق أية أجوبة ·

والعالم اليوم يبحث — فى سبيل خلاص الانسانية — عن الرضاء الروحى ، وهذا الخلاص لن نصل اليه أبدا الا عن طريق الدين ·

اذا أراد الانسان أن يكون حرا فلندعه كذلك على أن نحذره ألا يقيم دعائم حياته على عادات وأخلاق حيوانية ، فالحيوان يذهب فى أى وقت يشاء حيثما يريد ، فليس ذهابه هذا راجعا لاحد أعماله فهو يجول خلال الغابات أو يجرى عبر السهول دون حدود له أو قيود أو قانون يمنعه ويحده ويوجهه ·

وليس ثمة معنى فى انسان يتجاهل أحكام الدين وقواعده مقلدا للحيوانات ، فان العقل والتفكير والاحساسات والشعور سواء أصدرت عن عقله أو خرجت من قلبه أو كانت نتيجة لروحه الشاعرة لن تمكنه فى سهولة من أن يتجاهل الدين ، فالدين ليس شيئا عاديا بل هو أمر يحول الحياة الانسانية الى حياة مشوقة بهيجة · انه بالنسبة للانسان ضرورى حتى قيام الساعة لقد دفع الدين الانسان الى ما هو عليه من قدرة واقتدار ، وفاض عليه بأسرار النفس ، تلك الاسرار التى لا يستطيع الفرد بدونها أن يحقق النجاح فى حياته ولا تستطيع أمة أن تسير دونها فى طريق التقدم ·

لقد تقدمت العلوم وبلغت ذروة التقدم فى العصور الحديثة ، ولكن هل أثر هذا التقدم — على أى وجه — فى الانسانية ؟ هل سارت الانسانية قدما ؟

ان أردنا جوابا شافيا فعلينا أن ننظر الى هذه الفوضى الضاربة أطنابها التى سادت بعد الحرب العالمية الثانية وهى حرب بلغت العلوم فيها أقصى

درجاتها . فقد اخترعت الاسلحة المهلكة واستعملت بقسوة ـ ليست بعدها قسوة ـ فى تدمير سلام ورفاهية العـــالم . ومنذ ذلك لا يتوقع الانسان عودة سعيدة الى أحوال السلام أو الى الحياة العاذية الهانئة . لقد اضمحلت المدنية والرحمة فى قلوب البشر واختفى التسامح وحطمت المثل الاخلاقية . ويقول الشاعر « اقبال » وما أصدقه فى قوله :

« ان حكم الآلات فيـــه موات القلوب :

فقد سحقت الأسلحة المشاعر النبيلة »

وهناك سبب واحد لكل هذه الحوادث المؤسية والفعالة القاسية وهـذا السبب هو أن الالحاد سار خطوة فخطوة مع العلم .

ان المعرفة المحدودة والتجارب الناقصة التى جنيناها من الابحـــاث العلمية قد أسميناها ـ خطأ ـ قوانين طبيعة دائمة . والانسان اذ ظن أنها كل شيء لم يعد يعبأ أن يفكر ولو للحظة واحدة فى هذه القوة ذات السلطة المتعالية التى تستطيع أن تحطم وأن تدمر هذه الاختراعات العلمية .

ان القلب البشرى قد امتلأ بالرغبات النبيلة والعظيمة ولكننا فى لحظة واحدة ولظروف طارئة نرى هذا القلب وقد طرح جانبا أنبل ما فيـــه من احساسات وأعظم ما عنده من رغبات . ان الانسان ليبنى قلاعا فى الهواء ولكنها ما تلبث أن تتحطم فى لحظة واحدة كأنما هى قصور على الرمال ، وهو مع ذلك كله وعلى الرغم من تجاربه وملاحظاته وضعفه وعدم قدرته لا يترك خيلاءه ولا كبرياءه .

ان سلاح الالحاد هو العقل ولكنه سلاح عاجز أن يصل الى أبعد الحدود ، لقد ظنوا الرأس هو كل شيء ، بينما تركوا القلب للذئاب ، فبجلوا المادية وتجاهلوا الروحية ، فكانت نتيجة هذه الحمى وهذا السعى وراء الالحـــاد والمادية هى اختفاء الفضائل ، فذهبت فضيلة التســـامح والعطف والحب والطاعة ، بينما حل محلها حصاد من القسوة والبغضاء والوحشية والخيانة والثورة . ان الترياق الفريد لكل هذه الرذائل انما هو الدين .

يضل الانسان فى كل نواحى حياته ويضل العالم فى كل أوجه نشاطه فلا يعرف هذا ولا يعرف ذاك الطريق القويم الا عن طريق الدين . ان مثل من يهجر دينه مثل مسافر دون دليل فى أرض كثيرة المتاهات يتبع عن غير هدى الطريق الذى لن يصل به البتة الى غايته ، واذا به يرى نفسه فى النهاية يائسا مدحورا . **ان الطريق الصحيح القويم هو أن نتبع الاوامر والاحكام السماوية وهى وحدها التى تستطيع أن تسير بالانسانية نحو الهدف النبيل والغرض السامى .**

الواجب علينا اذن ، ألا نســـير مع الادعاءات الجوفاء والنظريات المادية الخادعة ، تاركين الدين والاحكام السماوية وراء ظهورنا .